Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الرّحلة السّفارية المغربية ودورها في إثراء المجال العلمي والأدبي خلال القرن التاسع عشر

The Moroccan safari journey and its role in enriching the scientific and literary field during the nineteenth century

سهيلة أحمد سرير Souhila Ahmed Serir
د. محمد درّاج Dr: Mohammed Derradj
جامعة الجزائر 2. (أبو القاسم سعد الله) Algeria University 2
souhilahistoire@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2018-05-21 تاريخ القبول : 2018-09-29

الملخّص :

عرفت الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر عدّة تغيرات نتج عنها ظهور نوع جديد من الرّحلات .عرف بالرحلة السّفارية التي كانت وجهتها صوب أوروبا .ولقد كان لها دور مهم في الاطلاع على الحضارة الأوروبية ونقل مظاهرها إلى بلاد المغرب التي كانت في مرحلة الانحطاط والتخلّف .الأمر الذي أدى إلى وعي الفكر المغربي.وذلك من خلال مساهمتها في إثراء المجال العلمي والأدبي .وهذا ما سوف نتعرف عليه من خلال هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية : المغرب، أوروبا ،القرن التاسع عشر،الرحلة السّفارية .

Abstract :

The jorney of morocco during the nineteenth century known several changes resulted in the emergence of a new type of trips know as the safari trip. Which was directed towards Europe and has had an important role in the knowledge of European civilization and the transfer of manifestations to morocco. Which was in stage of decay and underdevelopment. Which led to the awareness of Moroccan thought and that though its contribution to enriching the scientific and lirerary field and this is what we will learn through this study.

Key words :

morocco, Europe, 19 th century, the safari trip.

مقدمة:

لعبت الرّحلة المغربية في مختلف مراحلها التاريخية دورا أساسيا في انتقال القيم الحضارية و الثقافية، وانتشارها بين الأمم والشعوب، ممّا جعل النخب الحاكمة تشجع دائما الرّحالة المغاربة المنتمين إلى بلدهم على كتابة تقارير رحلاتهم. الشيء الذي أعطى للرّحلة إمكانية الإحاطة بواقع البلد المزار، و أحواله السياسية و العسكرية و العلمية و الإجتماعية والإقتصادية و الثقافية و الفنية،بل وتكون أداة تواصل واكتشاف لعالم أوروبي قطع أشواطا كبيرة في تقدّمه مقارنة ببلد أنهكته الهزائم وطغت عليه مظاهر التخلّف.

وبحكم أنّ المغرب هو أكثر البلدان العربية الإسلامية قربا من أوربا ، فإنّه من المنطقي أن تتوفر له ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الإسلامي، من حيث العلاقات السياسية و الإقتصادية مع أوربا الممتدة عبر قرون، و طابع الندية الذي وسم هذه العلاقات على المستوى السياسي و الديبلوماسي خلال مختلف فترات الدولة المغربية. و بهذا فإنّ كل هذه المعطيات التاريخية و الجغرافية انعكست بشكل مباشر على أدب الرّحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، والتي شهدت عدّة تحوّلات ، مما نجم عنها ظهور صنف غير مألوف في الرّحلة العربية المعاصرة هو صنف **"الرحلات السفارية** "،والتي جاءت وليدة لظروف كان يعيشها المغرب ،وكان لها أدوار مختلفة.

ولدراسة هذا الموضوع كان لابد من **طرح الإشكالية** التالية :

ماهي خصائص الرّحلة المغربية خلال الفترة المعاصرة وأهم مستجداتها ؟ وماذا يقصد بالرّحلات السفارية وإلى أي مدى ساهمت في تحقيق التواصل بين المغرب الذي كان في انحطاط بالعالم الأوروبي المتقدم والأخذ من حضارته ؟ ماهو الدور الايجابي الذي قامت به الرحلات السفارية في إثراء المجال العلمي والأدبي ؟

وللإجابة على جميع هذه التساؤلات ارتأينا الرجوع قليلا إلى الرّحلة في التراث العربي الإسلامي والتعّرف على خصائصها لنتمكّن من استنتاج التغيّر الذي حدث في الفترة المعاصرة :

أولا : الرّحلة المغربية وتطورها التاريخي:

أ . الرّحلة ومدلولها:

لقد اختلفت الآراء والنظرات من طرف الدّارسين والباحثين في ضبط تعريف محدد للرّحلة، وقد نتج عن ذلك الإختلاف ظهور عدّة مفاهيم لها حسب نظرة كل متخصص في مجاله .

فالمؤرخ: اعتبرها أنّها وثائق تاريخية ومصادر معرفية، تحدد الممالك وتبيّن المسالك تصف عجائب الأمصار ومحاسن الآثار، تبرز مختلف جوانب الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، تبيّن العادات والتقاليد وتصف مظاهر العمران والطبيعة [1].

أمّا الجغرافي: فإنّه لم ير فيها إلاّ ما له علاقة بعلم الجغرافيا. بينما نظر إليها دارسوا الأدب ونقّاده نظرة فنيّة وأدبيّة، إذ رأوا أنّها السّهل المستقيم الناضج بغنى التّجربة وصدق اللهجة. كما أنّها جمال اللّفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف، علاوة على ما تستعين به الرّحلة من أسلوب قصصي سلس، اعتمد السّرد والوصف والشعر والنثر. لذلك اعتبروها فن من فنون الأدب [2].

وعموما فالرّحلة في مفهومها اللغوي :هي الإنتقال الذي يقوم به الرحّالة من مكان إلى مكان آخر وفق زمن محدد وغرض معين[3].

أمّا في الإصطلاح: فبالإضافة إلى أنّها انتقال من مكان إلى مكان آخر، والحديث على البلد موضع الزيارة والمشاهدة كعالم مختلف، فهي بناء لذهنية الرّحالة وتصوير لمكونات الوعي الثقافي عنده وانطباعاته التي جمعت بين الإفادة والإمتاع [4].

ب . التطوّر التاريخي للرّحلة المغربية :

تعتبر الرّحلة المغربية امتدادا للرّحلة العربية في التراث الاسلامي ،إلّا أنّها في الفترة المعاصرة عرفت بعض التغيّرات وظهرت أنواع أخرى حسب ما اقتضته الظروف لذلك،وكان لابّد علينا قبل معرفة خصائص الرّحلة المغربية المعاصرة ومستجداتها من الرّجوع إلى معرفة طبيعة الوظائف التي كانت تميّز الرّحلة في الفترات الإسلامية السابقة، ومن ثمّ نتمكّن من استكشاف الفروق التي ميّزت الفترتين ونتعرف على الأنواع الجديدة للّرحلات التي ظهرت والوقوف عند أدوارها وأهميّتها .

1 . خصائص الرّحلة في التراث العربي الاسلامي:

اعتبرت الرّحلة في التراث العربي الإسلامي بما فيها الرّحلة المغربية أحد أهمّ الوسائل الأساسية التي ساعدت على انتقال المعارف الحضارية والثقافية وانتشارها بين المجتمعات، كما أنّها انفردت بمظاهر متميّزة قد لا نجدها عند غيرها من رحلات الأمم خارج دار الإسلام [5].حيث أنتجت لنا مساهمة كبيرة من طرف هؤلاء الرّحالة، تمثّلت في توفير مصادر تاريخية وجغرافية وإجتماعية وثقافية عظيمة القيمة غزيرة المادة متنوعة الأهمية [6].

ويعود سبب ذلك كونها كان لها دوافع متنوعة وأغراض مختلفة نتج عنها ظهور أنواع عديدة من الرّحلات أعطت معارف متنوّعة، تمثّلت فيمايلي :

. رحلات دينية :كانت أقوى دافع محرك للرّحلات المغاربية صوب المشرق العربي لأداء فرائض الحج ،وقد أطلق على هذا النوع تسمية الّرحلات الحجازية أو الحجّية.بالإضافة إلى رحلة أخرى ذات طابع ديني عرفت بالّرحلات الزيارية والصوفية تقوم على زيارة الأضرحة والزّهاد من أجل " لبس الخرقة" من قبلهم[7].

. رحلات علمية : كان هدفها استكمال المعرفة أو تنقيحها ،كما يمكن أن تكون لطلب الاجازة أو لهدف الحج وملاقاة العلماء والاستزادة منهم[8].

. رحلات تجارية :كانت التجارة منذ القدم أمرا يقتضي الّرحلة والسفر،خاصة وأنّ الموقع الإستراتيجي للبلاد العربية كان محلّ التقاء الطرق التجارية،وهذا جعل الّرحالة التجار يكتبون كلّ ما شاهدوه في تنقلاتهم [9].

زيادة على ذلك كان هناك نوع آخر من الّرحلة سمي بالرحلة العامة وهي التي تجمع أكثر من نوعين .

نستطيع القول ممّا سبق أن الرّحلة العربية في التراث الإسلامي كانت تتّسم بنفس الخصائص من حيث محتوى موضوعاتها وأدوارها بما فيها المغرب الأقصى،إلاّ أنّ هذا التماثل لم يدم خلال الفترة المعاصرة، فقد تغيّرت الرّحلة العربية بصفة عامة. والرّحلة المغربية على وجه الخصوص تغيرا واضحا في أغراضها ووجهات تنقلاتها التي أصبحت صوب أوروبا .

2 . الرّحلة المغربية المعاصرة :

عرفت الرّحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر بداية تحوّل في موضوعها وفي وظيفتها معا جعلها تبتعد عن الصورة المعهود فيها [10]، فقد ظهرت خلال هذه الفترة نماذج من الرّحلات اختلفت مساراتها وتباينت مستويات التعبير عنها، كما اختلفت أهمية أصحابها الفكرية والسياسية والإجتماعية، لتكون بذلك قد خطت خطوة جديدة كانت منعرجا حقيقيا في تغيّر طبيعتها بعد أن احتك هؤلاء الرّحالة العرب بحضارة الغرب، فتغيّر بذلك منحى واتجاه الرّحلة من المشرق والمغرب إلى أوروبا [11].

وهنا برزت الفروق التي ميّزت الرّحلة في الفترة المعاصرة عن الرّحلة التي كانت في التراث الإسلامي، ولعلّ أولى الفروق كان في تغيّر السبب الداعي للرحلة، أمّا عن ثاني الفروق فيكمن في وجهة الرّحلة

التي أصبحت صوب أوروبا، ليكون ثالث الفروق متمثّلا في تغيّر شعور الرّحالة من القوة إلى الإحساس بالإنحطاط والضعف، وشعورهم بالرّضا والموافقة تحوّل إلى قلق ورغبة في إدراك ما يجده عند الآخر الأوروبي، هذا الأخير هو الذي كان له أثرا بارزا في تغيّر وجهة الرّحالة نحو أوروبا المتقدمة [12]، كما أوجب عليهم ضرورة النظر إلى الغرب والرّحيل إلى بلدانهم، والإحاطة بمختلف أحوالهم السياسية والعسكرية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية والفنية، إمّا رغبة منهم أو كان أمرا من طرف السّلطة الحاكمة، هدفهم من وراء ذلك الخروج من قوقعة الإنغلاق والإنفتاح على الحضارة الأوروبية في كل مجالاتها [13].فشكّلت بذلك الرّحلة خلال القرن التاسع عشر دورا رئيسيا في محاولات كشف العرب لأوروبا في ثوبها الجديد من تقدم شمل مختلف المجالات.

وهكذا بدأت فترة مغايرة نشطت فيها الرّحلة العربية عامّة والرّحلة المغربية بصفة خاصّة، انعكست مباشرة على هذه الأخيرة ونتج عنها ظهور نوع جديد في الرّحلة المغربية المعاصرة المتمثل في " **الرّحلة السفارية** ".

فماذا يقصد بالرّحلة السفارية؟ وإلى أيّ مدى ساهم هذا النوع من الرّحلة في إثراء المجال العلمي والأدبي ؟

خلفيات توجه الرّحلة المغربية صوب أوروبا خلال القرن التاسع عشر:

طرأت على الرّحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر عدّة تغيرات من حيث وظائفها وتوجهها، إذ أصبحت أوروبا هي المكان المقصود للرّحلة، وهو ما أدّى من خلالها إلى استكشاف طبيعة الوعي بالآخر، واستجلاء أهمّ الأفكار التحديثية، عن طريق الرّحالة المغاربة الذين شكّلت نظرتهم وانتباههم لتقدّم البلاد الأوروبية وعيا وثروة معرفية حداثية، جمعت بين ما هو مفيد وطريف وغريب وعجيب ومدهش ، التقطته عيون مصوبة نحو عناصر القوة في كينونة الاخر [14]

.

ولقد كان لتغيّر وجهة الرّحلة المغربية صوب أوروبا عدّة خصائص وعوامل انفردت بها عن غيرها من بقية البلاد العربية، وكانت سببا في حدوث ذلك الإتصال مع مختلف الدول الأوروبية.منها عامل الجغرافيا، فالمغرب الأقصى هو أكثر البلاد العربية قربا من أوروبا، وهذا ما ساعده في الإحتكاك بها والتواصل معها والتنقّل إليها، وحيث تحكم الجغرافيا بذلك، فإنّه تتوافر معها ما لم يكن لغيره من حيث الصلات السياسية والعلاقات التجارية [15].

ومن العوامل الأخرى المساعدة على احتكاك المغرب بالغرب، هو تمكّنه من الحفاظ على استقلاله السياسي زمنا طويلا مقارنة بباقي الأقطارالعربية التي كانت منضوية تحت الدولة العثمانية، كما كان هناك عامل آخر وهو الذي شكّل أساس انطلاق الرّحالة المغاربة صوب أوروبا، وأوجب عليهم الذّهاب وزيارة الآخر من أجل إيجاد الحلول المناسبة لإنقاذ بلادهم من قبضة الاستعمار، وهو عامل الهزيمة أو ما عرف في الفكر العربي المعاصر بلحظة الهزيمة والإكتشاف[16].

كان لا بدّ على المغرب الإنتباه من غفوة السكينة ومن الهدوء إلى الإفاقة على صدمة الإضطراب والقلق، فهو لم يتعرض لصدمة واحدة كأمثاله من العرب بل شهد عدة هزائم قوية متلاحقة تنوعت بين الصدمة العسكرية وصدمة الحضارة الأوروبية ،أمّا عن الصدمة الأولى فقد كانت باحتلال فرنسا للجزائر عام1830م وشعور المغرب باقتراب الخطر الاوروبي من حدوده الشرقية ، أيضا هزيمة المغرب أمام فرنسا في معركة إيسلي عام 1844م [17]، وهي المعركة التي أظهرت فارق الإختلاف بين التقنيات الحربية الأوروبية والمغربية، فكشفت أنّ الذات ما ينقصها من أسباب القوة والنصر يوجد عند الاخر.أمّا الهزيمة الثالثة فلم تكن أقلّ قوّة وتأثيرا على نفوس المغاربة، وهي الهزيمة التي منيّ بها المغرب أمام اسبانيا في معركة تطوان عام 1860م [18].

على إثر هذه الهزائم التي تعرّض لها المغرب أدرك أن البحر الأبيض المتوسط لا يفصل بين دار الإسلام ودار الكفر فحسب، بل أنّه يفصل بين عالمين متغايرين صار أحدهما يعيش أوج التمدن والتفوق والقوة، في مقابل عالم آخر أصبح يعيش الضعف والتأخر والإنحطاط . وحتى لا يستسلم المغرب وسلاطينه لهزيمة الآخر وسيطرته ، كان لابدّ عليه من إيجاد وسيلة جديدة توطّد العلاقات المغربية الأوروبية من جهة، ويكون دورها الآخر اكتشاف الغير و الأخذ بأسباب تقدّمه [19].وكنتيجة لهذه الظروف الحرجة التي كان يعيشها المغرب الأقصى ظهرت رحلة جديدة بأغراض ومهمّات مختلفة عرفت **بالرحلة السفارية**.

1 . مفهوم الرّحلات السفارية :

أ- السفارة من الناحية اللغوية هي من "سفربين القوم يسفر بكسر الفاء (سِفارة) بالكسر اي اصلح...

فالسفارة : هي العمل الذي يقوم به السفير وفاق او اصلاح بين طرفين وإرجاع الامور الى نصابها ، ويمكن أن تكون السفارة هي المكان الذي يقيم فيه السفير.

ب . أمّا في الاصطلاح : فالرحلة السفارية هي التي تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية، وتكون أحيانا من إنشاء السّفير نفسه إن كان من رجال الأدب والعلم في نفس الوقت، وأحيانا أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتاب المرافقين للسفير[20] .

وعليه فقد جاءت الرّحلة السّفارية المغربية في سياق سياسي دبلوماسي بين طرف في مأزق الهزيمة والإحتلال، وطرف آخر في قمّة التقدم العسكري والسياسي والصناعي والثقافي والفني، فكانت وليدة تطور العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وأوروبا[21]. وفي هذا الإطار أرسلت عدّة رحلات سفارية كان لها خصائص معينة وأهميّة كبيرة.

2 . خصائص الرّحلة السفارية المغربية وأهميتها :

تعدّ الّرحلة السّفارية من أهمّ النصوص المهمّة التي جسدت ثنائية التواصل بين المغرب وأوروبا ، كما اعتبرت بمثابة إنتاجات فكرية صيغت على شاكلة تقارير صوّرت بشكل عام منظور هؤلاء الرّحالة السفراء ورؤيتهم لمخترعات المدنية الغربية ومواقفهم إزاء مظاهر التقدم الأوروبي الحديث[22].

ونظرا لتوتر العلاقات مع الآخر خلال هذه الفترة ، والتي كانت تتسم بالصراع بحكم تحولات الغرب من جهة من تنوير الأذهان إلى استعمار البلدان. وبحكم التحولات التي شهدها المغرب من القوة إلى الهزيمة والتخلّف، هذا التحوّل هو الذي جعل الرّحلات السفارية تنشط بشكل مكثف، إذ أنّ مبادرة الرحيل الى أوروبا كانت بطلب من السلاطين المغاربة وبرعايتهم وذلك لهدفين اثنين :

أولا: الحوار الدبلوماسي وحلّ القضايا العالقة بين الطرفين.

ثانيا : من أجل الإستطلاع على أحوال الحضارة الاوروبية. و التعرف على مواطن قوتها وأسباب مدنيتها. ومحاولة اقتباسها حتى يتمكنوا من إصلاح أوضاع المغرب على النمط الاوروبي[23] .

وهكذا كانت الرّحلات السفارية بمثابة قناة لمعرفة الآخر واستكشاف تنظيماته ووسائل تفوقه للاستفادة منها عند الضرورة.كأمثلة عن النماذج المهمة من الرحلات السفارية التي برزت خلال القرن التاسع عشر نذكر :

أ . رحلة محمد بن عبد الله الصفار[24] المعنونة بـ" رحلة الصفار الى فرنسا 1845 . 1846م : كانت وجهتها الى فرنسا وهي رحلة سفارية استغرقت شهرين من الزمن بين نهاية عام 1845 ومنتصف الشهر الثاني سنة 1846م ن جاءت عقب هزيمة المغرب في معركة ايسلي عام 1844 م وكانت البعثة من طرف السلطان المغربي و ومهمتها محاولة فتح قنوات الحوار مع فرنسا من أجل مسألة الحدود الشرقية ، مثلما كانت رحلة برغبة السلطان من أجل اكتشاف أسباب المدنية الاوروبية الحديثة[25].

ب . رحلة محمد الطاهر الفاسي[26] الى انجلترا بعنوان :" الرحلة الابريزية إلى الديار الانجليزية ورحلة

إدريس العمراوي[27] بعنوان :" تحفة الملك العزيز بمملكة باريز الى فرنسا ، تزامنت هاتين الرحلتين في وقت واحد على إثر هزيمة أخرى مني بها المغرب في معركة تطوان عام 1860م،فجاءت لأجل عقد معاهدات سياسية وإبرام اتفاقات تجارية، كما كان لهما أثرا في تشكيل الوعي السياسي في المغرب الحديث [28].

ج . رحلة أحمد الكردودي[29] المعنونة بـ" التحفة السنية للحضرة الحسينية بالمملكة الاسبنيولية ، كانت من طرف السلطان الحسن الاول[30] ، وكان الغرض منها الحوار الدبلوماسي مع اسبانيا من جهة والاطلاع على التقنيات والمخترعات الاوروبية الحديثة العسكرية منها من جهة اخرى .

د . أخيرا رحلة إدريس الجعيدي[31] بعنوان :" إتحاف الاخيار بغرائب الاخبار ، تنوعت توجهاتها بزيارة كل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وإنجلترا كان هدفها أيضا محاولة تصوير التمدن الاوروبي وتقدمه في مختلف المجالات خاصة العسكرية [32].

هذا عن رصد جميع الرحلات السفارية المغربية التي توجهت الى اوروبا خلال القرن التاسع عشر، أما عن المميزات والخصائص التي ميزتها ،فنلاحظ انه كان هناك تباينا ووفاقا بين الرحالة من حيث متن الرحلة،فالتباين والاختلاف حصل في دقة الاوصاف وحجم المعلومات التي نقلوها وانطباعاتهم ومستوى إدراكهم لمظاهر التقدم الاوروبي وتفسير أسسه ومقوماته.إلا أنّ هؤلاء اشتركوا في الأفكار المعبر عنها في كونها تعكس رؤية واحدة [33].

لذلك يمكن اعتبار هذه النصوص السفارية بمثابة نص واحد كتب بعناوين مختلفة، حيث حرص مؤلفي هذه الرحلات على تقديم صورة تكاد تكون شاملة ومفصلة عن مختلف جوانب الحياة الاوروبية، كما اهتمت أوصافهم بالتعريف بأهم منجزات التقدم التقني وخصائص العمران، كما أنها اعتنت برصد الانظمة السياسية مثل حديثهم عن المؤسسات السياسية القائمة ووظائفها وعن تشريع القوانين ودور الصحاف، كما أولوا اهتماما كبيرا للتنظيمات الإقتصادية، ضف الى ذلك معطياتهم عن التكنولوجيا والنشاط العلمي والتقني، أيضا تجسيدهم للحياة الاوروبية من حيث العادات والتقاليد، إلاّ أنّ تركيزهم الاكبر كان حول الجانب

العسكري نظرا للعطب الذي كان يعانيه المغرب في جيشه وقوته العسكرية ،فقد أسهب الرحالة المغاربة في وصف مؤسسة الجيش وكل مايتعلق به من تقنيات حربية وغيرها [34].

فالرّحلة المغربية خلال الفترة المعاصرة كانت تمثل أهم الفنون التي صوّرت احتكاك العربي بالغرب، وما نجم عن هذا الإحتكاك من مؤثرات صدمت الذهنية العربية والمجتمع العربي [35]، كما أنّها مثّلت أهمّ الوسائل التي عرفتهم بمظاهر الحضارة الأوروبية وأفكارها ومبادئها ونظمها الجديدة، وذلك من خلال مساهمتها في اكتشاف تلك المفارقات الفكرية والحضارية بين العالمين الإسلامي

والأوروبي، ومن ثمّ التوصل إلى سبل وطرق جعلت المغرب يسعى لاقتباس مظاهر تلك الحضارة الأوروبية وتقدّمها [36].

خلاصة القول عن خصائص الرّحلات السفارية جعلتنا نلتمس لدى هؤلاء الذين قاموا بالرّحلة موقفا مزدوجا، تارة نجدهم يتخوفون من الآخر وقوته وتزايد خطره والنظر اليه بحذر؛ وتارة أخرى الدّهشة والإنبهار والميل للإنفتاح على الآخر وضرورة الإقتباس من حضارته.

ثانيا . دور الرّحلات السفارية في إثراء المجال العلمي والأدبي :

أ . في الجانب العلمي :

لقد كان للرّحلات السفارية دورا مهمّا في إثراء المجال العلمي، إذ أنّها مثّلت أحد أهمّ المصادر التاريخية القيّمة التي ساهمت في تزويد الباحثين في مجالات مختلفة والدّارسين بمعلومات متنوعة قلّ ما نجدها عند غيرها من المصادر الأخرى [37]، فتكمن أهميتها ودورها الأساسي في كونها حملت في طيّاتها كثيرا من الأخبار المتعلّقة بالآخر الأوروبي وطبيعة حياته. ونقلت لنا صورا من حضارته وتقدّمه، ممّا أسهم ذلك في توسيع مدارك المؤرخين والجغرافيين وزادتهم في معارفهم وأثرت بحوثاتهم. فهي . الرحلات السفارية . أعطت صفحات من تاريخ البلدان الأوروبية ، كما أنّها قامت بالتّعريف بثقافته، وعليه فمطالعتها لازمة لكل من يودّ الكتابة أو الدراسة عن إحدى الفترات التي كتبت فيها [38].

فقارئ الرّحلة لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه الرّحالة فحسب، بل يتعرّف على أفكار وتصورات ذلك الذي يحدثه على رحلته. وإنّ ما كتبه الرّحالون العرب إلى أوروبا من خلال رحلاتهم السّفارية يشكل بالنسبة لمؤرخ الفكر العربي الإسلامي المعاصر مادة ثمينة تفيده في التعرّف على الكيفيات التي ينظر بها العرب الى واقع تأخرهم وانحطاطهم في مقابل تقدّم أوروبا وتفوقها [39].أيضا يكمن دورها في كونها قامت بتفعيل الحركة الإصلاحية في المغرب من خلال نجاحها في نقل كل مايتعلق بأسباب نجاح أوروبا. لتكون بذلك قد ساهمت في إيقاظ الوعي والفكر المغربي بداية من السلطة الحاكمة إلى بقيّة الأوساط الثقافية الأخرى، وهذا ما قد يفيد المفكر العربي المعاصر في محاولته لفهم المسائل النهضوية التي شهدها المغرب خلال الفترة المعاصرة،كما كان لهذه الرّحلات دور آخر في تزويد المؤرخين بمعلومات تعلّقت بطبيعة العلاقات السياسية التي جمعت بين المغرب وأوروبا، ومن ثمّ فهم التطورات التي كان يعيشها الطرفين [40].

ممّا سبق ذكره نستطيع القول عن الرّحلات السفارية أنّها لعبت دورا مهمّا من حيث توفيرها لمعارف تاريخية وجغرافية وإجتماعية وثقافية سهّلت عملية البحث من خلال المعطيات التي احتوتها. كما ذكرنا سابقا إذ أنّها أعطت صورا مشهدية عن واقع عرف التخلّف وعاش في انغلاق وانحطاط، مقابل عالم آخر كان يعيش أوج التقدّم والتفوّق مع إعطاء سُبل الأخذ بأسباب ذلك التقدّم. لتكون بذلك الرّحلات السّفارية أحد أهمّ وسائل التواصل والإحتكاك التي أطلعت الأول(المغرب) على ماكان يعيشه الثاني (أوروبا).

ب . دور الرحلات السفارية في إثراء المجال الأدبي :

تعتبر الرّحلة الى جانب أنّها مصدر تاريخي من حيث مضامين معلوماتها، فإنّها فن من الفنون الأدبية لما احتوته من جمال الأسلوب وأثر اللّفظ، فكان لها بذلك أدوارا أدبية أفادت الأديب الذي اعتبرها أنّها مصادر فريدة لكثير من النصوص الأدبية شعرا كانت أم نثرا لإنفرادها برواية الكثير من النصوص، فالرّحالة حرصوا على أن تضمّ رحلاتهم صبغات أدبية تزيد الرّحلة جمال، فأدرجوا فيها قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية، وهذا الأمرالذي جعل الرّحلات ذات أهمية أدبية، كونها ضمّت عناصر القصة الأساسية من سرد وحوار ووصف وغيرها، فجمعت بين المتعة والفائدة، فكان للأديب من خلال هذه الرّحلات إفادة واستزادة في كل مايحتاج إليه من نثر وشعر، وهنا نستشهد بقول للإمام الشافعي حين قال عن الرّحلة وفوائدها [41]:

تغرّب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرّج همّ واكتساب معيشة علم وآداب وصحبة ماجد

خاتمة :

لقد استطاعت الرّحلة المغربية المعاصرة بمختلف أنواعها الجديدة أهّمها الرّحلات السفارية من أن تساهم في إثراء الحياة العلمية والأدبية من خلال تلك المعارف التي قدمتها ، كما أنّها استطاعت أن تجسّد لنا حضارة الآخر وتحثنا على ضرورة الأخذ بأسباب نجاحه، أيضا مثّلت تلك الرّحلات أهم مصادر التاريخ والأدب والجغرافيا وغيرها من المجالات التي لا يمكن الاستغناء عنها. فكانت بذلك . الرّحلات السفارية . وسيلة تواصل ثم احتكاك ثم مشاهدة ودهشة وانبهار ثم تأثّر وفي الأخير تطبيق. وعليه تبقى تلك الرّحلة مصدر مهم لابدّ من الرّجوع إليه والأخذ من معارفه ومعطياته.

الهوامش:

(1) الطاهر حسيني ،**الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بنؤها الفني أنواعها وخصائصها** ، أطروحة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب ،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة ، 1435.1434هـ / 2013. 2014م ، ص13.

(2) فردوس أحمد بت " أهمية أدب الرحلات من الناحية الأدبية " **مجلة اللغة**، الكتاب الثاني ، العدد 2،دون بلد ،يناير. مارس 2016 ،ص ص 3.1.

(3) الطاهر حسيني ،المرجع السابق ، ص ص 15 . 17

(4) سعيد بنسعيد العلوي ، **أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة** ،ط1 ،مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء ، 1415 / 1995 م ، ص 15 .

(5) نفسه ، ص ص 15 ، 16

(6) فؤاد قنديل ، **أدب الرحلة في التراث العربي** ، ط2،مكتبة الدار العربية للكتاب ،القاهرة ،1423هـ/ 2002 م ،

(7) يعتبر الرحالة أبو بكر الهروي المتوفى سنة 1215م من أشهر الرحالين المختصين في الزيارات الى الاضرحة للتبرك بها ،وقد دوّن تنقلاته تحت عنوان :" الاشارات الى معرفة الزيارات " .للمزيد أنظر جميلة روباش ، **أدب الرحلة في المغرب العربي** ،رسالة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الادب الجزائري القديم ،جامعة محمد خيضر، بسكرة ، 2014 / 2015م ، ص 27 .

(8) سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع نفسه ، ص 16 .

(9) جميلة روباش ،المرجع السابق ، ص 27 .

(10) سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ،ص 18 .

(11) حسين محمد فهيم ، **أدب الرحلات** ، دط ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت ، 1978 م ، 176 .

(12) سعيد بنسعيد ، المرجع نفسه ، ص ص 18 . 20 .

(13) جمال حيمر ، " تصورات مغربية للمدنية الأوروبية من خلال الرحلات السفارية " ، **ندوة حول أدب الرحلة في التواصل الحضاري** ، كلية الاداب والعلوم الانسانية ، جامعة المولى اسماعيل ، مكناس ، ص ص 338 ، 339 .

(14) عبد النبي ذاكر ، "مرآة الغيرية وأسئلة التحديث في الرحلات السفارية المغربية من ق 18 الى مطلع ق 20م" ، **ندوة حول الرحلة العرب والمسلمون اكتشاف الاخر المغرب منطلقا** وموئلا ، ط1 ، وزارة الثقافة ، الرباط ، 2003م ، ص ص 369 ، 370 .

(15) سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص 20 .

(16) نفسه ، ص ص 50 ، 51 .

(17) **معركة ايسلي** : وقعت هذه المعركة عام 1844 م بين المغرب وفرنسا ،وقد كان من اهم أسبابها هو قرب فرنسا من الحدود المغربية وتخوف السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان على اراضيه من جهة ، ومساعدته للامير عبد القادر ومساعدته له كانت من القضايا التي اشعلت فتيل الحرب بينهما ، وقد سميت بإيسلي نسبة الى نهر إيسلي بالمغرب الاقصى .للمزيد أنظر :ثرايا برادة ،الجيش المغربي وتطوره خلال القرن التاسع عشر ، دط ، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية ،الرباط، 1970م، ص ص 202، 203. وأنظر أيضا: Henri-Jean Jules Mordacq,**La Guerre Au Maroc**, Deuxiéme Edition,Editeur Militaire,Paris,1908,p16-21.

(18) **معركة تطوان** : كانت هذه المعركة بين المغرب واسبانيا في اواخر سنة 1859 واوائل عام 1860 م ، كانت اسباب هذه الحرب هو تمزيق العلم الاسباني وتلطيخه من طرف افراد قبيلة أنجرة على إثر هزيمة إيسلي .للمزيد أنظر : Osiris,**Histoire De La Guerre De l »Espagne Avec Le Maroc**,Edition Spéciale,Paris ,1860,p167_267.

(19) سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص 51 .

(20) جميلة روباش ، المرجع السابق ، ص ص 239 ، 240 .

(21) لقد ظهر هذا النوع من الرحلة لأول مرة في المغرب في عهد الدولة السعدية ؛ وأول رحلة بلغتنا من هذا النوع هي رحلة "النفحة المسكية في السفارة التركية" الذي كتبها أبو الحسن علي بن محمد التامكروتي سفير المنصور الذهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثالث سنة 997 هـ / 1589م.للمزيد أنظر: نفسه، ص ص 240،239.

(22) عبد الرحيم مؤدن ، " مجمع التواص واللاتواصل في الرحلة المغربية السفارية الدبلوماسية أثناء القرن 19" ،**ندوة الرحالة العرب والمسلمون** ...، المرجع السابق ، 445 .

(23) جمال حيمر ، المرجع السابق ، ندوة أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، ص ص 338 ، 339 .

(24) **الصفّار:** هو محمد بن عبد الله الصفارالأندلسي التطواني ، عين كاتبا للسفير المغربي عبد القادر أشعاش عندما أرسلهم السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام في مهمة دبلوماسية ألى فرنسا ، وألف رحلته المشهورة " رحلة الصفار إلى فرنسا ". للمزيد أنظر محمد بن عبد الله الصفار، **رحلة الصفار إلى فرنسا 1845 . 1846** م ،تحقيق : سوزان ميللر ،تعريب : خالد بن الصغير ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، الامارات العربية . بيروت ، 2007 م ، 17 .

(25) سعيد بنسعيد العلوي ، " أوروبا الرحالين المغاربة " ، **ندوة الرحالة العرب والمسلمون** ... المرجع السابق ، 20 .

(26) **الفاسي:** هو أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي ،ولد بفاس عام 1246 هـ / 1830 م ودرس بها وبعد انتهاء دراسته عُيّن في القصر الملكي ، كان من العلماء المدرسين ، وجهه السلطان محمد بن عبد الرحمن في سفارة انجلترا ، توفي سنة 1868م . للمزيد أنظر : أبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي ، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية** ، تحقيق : محمد الفاسي ، دط ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، 1387 هـ / 1967م ، ص ص 1 ، 2 .

(27) **العمراوي:** هو إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي الإدريسي، كان وزيرا وشاعرا من الشعراء الكتاب ، أرسله السلطان محمد بن عبد الرحمن في بعثة إلى فرنسا في أواخر عام 1276 هـ فأقام بباريس 32 يوما ألف رحلته المشهورة " تحفة الملك العزيز بمملكة باريز في فرنسا "،ثم انتدب سفيرا إلى إسبانيا ، توفي في رباط الفتح .للمزيد أنظر: خير الدين الزركلي ، **الأعلام** ،ج1 ، ط15 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 2002م ، ص 281 .

[28] سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص 23 .

[29] **الكردودي:** هو أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي الكلالي ، من العائلة الكلالية الحسينية ، ولد بفاس عام 1240ه ، تربّى على يد والده الفقيه ، كان مولعا بالتاريخ والأدب والطب ، كان عدلا موثقا ،ثم رقي للكتابة في وزارة الشكايات ، بعث في سفارة إلى فرنسا .للمزيد أنظر : أبي العباس أحمد بن محمد الكردودي ، **التحفة السنية للحضرة الحسينية بالمملكة الإصبنيولية** ، دت ، دط ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1383ه /1963م ، ص ص 10 . 13 .

[30] **مولاي الحسن** :هو مولاي الحسن الأول بويع بعد وفاة والده عام 1873م على اعتلاء العرش ، وتوفي عام 1894 م كان من أهم أحزم ملوك الدولة العلوية وأشهرهم سعيا في تثبيت دعائم الأمن وتنظيم الإدارة وإدخال أسباب الحضارة الحديثة .للمزيد أنظر : نفسه ، ص 10.

[31] **الجعيدي:** هو إدريس الجعيدي السلوي ينتمي إلى أسرة شريفة ،كانت تستوطن مدينة تطوان، عرف باطلاعه الواسع وتتلمذ على يد العديد من المشايخ ، كان مولعا بمختلف العلوم ، وكان محبا للأسفار مثل تنقله لأوروبا توفي عام 1308ه ودفن في سلا. للمزيد أنظر: إدريس الجعيدي السلوي ، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار** ، تحقيق : عز المغرب معنينو ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، الإمارات العربية . بيروت ، 2004م ، ص ص 16 . 22 .

[32] سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص ص 23 ، 24 .

[33] جمال حيمر ، المرجع السابق ، ندوة أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، ص 339 .

[34] جمال حيمر ، المرجع السابق ، ندوة أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، ص 340 .

[35] نازك سابايارد،**الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**،ط 2،نوفل للنشر، دون بلد، 199 م، ص 7 .

[36] نفسه ، ص ص 7 ، 8 .[37] فردوس أحمد بت ، المرجع السابق ، ص 3 .

[38] جميلة روباش ، المرجع السابق ، ص 279 .

[39] سعيد بنسعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص 9 .

[40] نفسه ، ص 9 .

[41] فردوس أحمد بت ، المرجع السابق ،ص ص 1 . 3

قائمة المصادر والمراجع:

1 . المصادرالعربية والأجنبية:

. الجعيدي السلوي ، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار** ، تحقيق : عز المغرب معنينو ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، الإمارات العربية . بيروت ، 2004.

. الصفّار محمد بن عبد الله ، **رحلة الصفار إلى فرنسا 1845 . 1846** م ،تحقيق : سوزان ميللر ،تعريب : خالد بن الصغير ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، الامارات العربية . بيروت ، 2007 م.

. الفاسي أبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية** ، تحقيق : محمد الفاسي ، دط ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، 1387 ه / 1967م.

. الكردودي أبي العباس أحمد بن محمد، **التحفة السنية للحضرة الحسينية بالمملكة الإصبنيولية** ، دت ، دط ، المطبعة الملكية،الرباط ، 1383ه /1963م ، ص ص 10 . 13.

_ Henri-Jean Jules Mordacq,**La Guerre Au Maroc**, Deuxiéme Edition,Editeur Militaire,Paris,1908

_ Osiris,**Histoire De La Guerre De l »Espagne Avec Le Maroc**,Edition Spéciale,Paris,1860, p167_267.

2 . المراجع :

. برادة ثريا ،**الجيش المغربي وتطوره خلال القرن التاسع عشر**، دط ، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية ،الرباط، 1970م، ص ص 202، 203.

. الزركلي خير الدين ، **الأعلام** ،ج1 ، ط15 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 2002م.

. سابايارد نازك،**الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**،ط 2،نوفل للنشر، دون بلد، 199 م.

. العلوي سعيد بنسعيد ، **أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة** ،ط1 ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1415 / 1995 م.

. فهيم حسين محمد ، **أدب الرحلات** ، دط ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت ، 1978 م.

. قنديل فؤاد، **أدب الرحلة في التراث العربي** ، ط2،مكتبة الدار العربية للكتاب ،القاهرة ،1423ه/ 2002 م.

3 . الرسائل الجامعية:

. حسيني الطاهر ،**الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بنؤها الفني أنواعها وخصائصها** ، أطروحة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب ،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة ، 1435.1434ه / 2013. 2014م.

. روباش جميلة ، **أدب الرحلة في المغرب العربي** ،رسالة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الادب الجزائري القديم ،جامعة محمد خيضر، بسكرة ، 2014 / 2015م.

4 . المقالات والندوات:

.أحمد بت فردوس" أهمية أدب الرحلات من الناحية الأدبية " **مجلة اللغة**، الكتاب الثاني ، العدد 2،دون بلد ،يناير. مارس 2016.

. حيمر جمال، " تصورات مغربية للمدنية الأوروبية من خلال الرحلات السفارية " ، **ندوة حول أدب الرحلة في التواصل الحضاري** ، كلية الاداب والعلوم الانسانية ، جامعة المولى اسماعيل ، مكناس .

. ذاكرعبد النبي، "مرآة الغيرية وأسئلة التحديث في الرحلات السفارية المغربية من ق 18 الى مطلع ق 20م" ، **ندوة حول الرحلة العرب والمسلمون اكتشاف الاخر المغرب منطلقا** وموئلا ، ط1 ، وزارة الثقافة ، الرباط ، 2003م.

. العلوي سعيد بنسعيد ، " أوروبا الرحالين المغاربة " ، **ندوة الرّحالة العرب والمسلمون**.